الأديب
شفيق حبيب

الشاعر شفيق حبيب

مَسيرةُ عطاءٍ وشاهدٌ على الحَدَث[1]

سليم أبو جابر

سيرته:

ولد الشاعر شفيق حبيب عام 1941 في قرية دير حنا، حيث أنهى دراسته الابتدائية بمدارس القرية، والثانوية بالمدرسة الثانوية البلدية بمدينة الناصرة. درس شفيق حبيب المحاسبة في دار الموظف بحيفا حاصلاً على دبلوم المحاسبة، وانتسب بعدها إلى معهد الصحافة والعلاقات العامة بالمعهد البريطاني بمدينة القدس. عمل حبيب في سلك التعليم لفترة قصيرة، وفصله الحُكم العسكري عام 1961 بسبب قصائده الوطنية الحماسية ومواقفه السياسية الملتزمة. يُعَدّ الشاعر حبيب من بين الشعراء الذين فتحوا أعينهم على واقع مؤلم وظُلم شديد. عمل الشاعر بعد ذلك في مكتب حسابات خاص بحيفا، واشتغل في عدة مكاتب محاسبة مستقلة حتى استقر به المقام في" شركة الناصرة للسياحة المحدودة " "العفيفي" منذ عام 1964 .

كان لتوجهات الشاعر حبيب نحو الصحافة عامّة والأدب خاصة أثرٌ بالغ في أن يعرفه الناس، وذلك من خلال نشاطاته الأدبية، ومشاركاته في المهرجانات الشعرية، وفي الصحافة اليومية والمجلات والإذاعة. إلى جانب المحاسبة والشعر، نجد الشاعر شفيق يكتب المقالة السياسية والنقدية معًا الأمر الذي جعل نتاجه الأدبي متنوعًا.

أشارت الكاتبة دالية بشارة، إلى نشاط الشاعر وتواصله بالجماهير بقولها: "واعتلى الشاعر شفيق حبيب عشرات المنابر من شمال البلاد إلى جنوبها، يذود عن حقوق الشعب الفلسطيني في هذه البلاد، لأنه شاعر خرج من صفوف الشعب، حيث التزم بقضايا شعبه الجماهيرية والسياسية والاجتماعية. ففي جميع دواوينه تناول جميع الأحداث في قصائده

[1] أجريتُ مقابلة مع الشاعر بتاريخ 1.1.2012، اعتمدتها مصدرًا إضافيًّا لهذا المقال.

ليتجلى لنا تاريخ بطولات الشعب الفلسطيني ومعاناة هذا الشعب من خلال أحداث الانتفاضة، وهدم البيوت ومصادرة الأراضي وأزمة السكن ويوم الأرض. وقد حوكم الشاعر وسُجن جراء كتاباته، كما صودر ديوانه "العودة إلى الآتي "[2]

يُعد الشاعر شفيق ذا نتاج غزير، فقد أصدر خمسة عشر ديوانًا شعريًا وهي:

1. قناديل... وغربان، القدس، 1972- شعر.
2. مأساة القرن الضِّلّيل، الناصرة، 1976- شعر.
3. دروب ملتهبة، الناصرة، 1980- شعر.
4. وطن... وعبير، الناصرة،1981- شعر.
5. أنادي: أيها المنفى!، الناصرة، 1984- شعر.
6. أحزان المراكب الهائمة، الناصرة، 1987- شعر.
7. الدم والميلاد، الناصرة، 1988- شعر.
8. العودة إلى الآتي، الناصرة، 1990- شعر.
9. ليكونَ لكم فيَّ سلام، الناصرة، 1992- شعر.
10. آهٍ يا أسوارَ عكا، الناصرة، 1994- شعر.
11. تعاويذ من خزف، الناصرة، 1996- شعر.
12. لماذا...؟، الناصرة، 1998- شعر.
13. صارخ في البريّة، الناصرة، 2001- شعر.
14. أنا الجاني...، الناصرة، 2005- شعر.
15. شآبيب، الناصرة، 2011- شعر.

[2] - بشارة، دالية. **"دراسات في بعض أعمال شفيق حبيب"**. صحيفة **"كل العرب"** النصراويه، 27.1.1995.

بالإضافة إلى ذلك، أصدر الشاعر شفيق كتابًا نثريًا بعنوان "في قفص الاتّهام"، وهو عبارة عن توثيق لوقائع معركة حرية التعبير ضد سياسة القمع المنهجي، فكان جريئًا إلى حد كبير، وعرّى المواقف التي صادفته سلبًا أم إيجابًا.

ترعرع الشاعر شفيق في فترة حرجة، إذ فتح عينيه على مآسي النكبة والهجرة وملحقاتها، الأمر الذي جعل لهذا أن ينمو ويظهر جليًا في شعره. فهو من الذين ساعدوا على تجسيد ملامح الثقافة الوطنية والهوية القومية للشعب العربي الفلسطيني. أُعتقِل الشاعر شفيق وحوكم عام 1990 حتى 1993 بتهمة مساندة الانتفاضة والتحريض على جيش الدفاع الإسرائيلي، حيث قامت الشرطة بإحراق كافة مؤلفاته ومستنداته التي استولت عليها من بيته ومن المطبعة والمكتبات.

استحوذ الهمّ الوطني وقضاياه قد على نفسية الشاعر، ووجدت منافذها عبر إبداعه وأفكاره، فأصبح يغنّي للوطن، ممّا جعل "أغنية لبلادي" ، تُغنّى محليًا وفي العالم العربي، والتي قد تكون من بواكير أعماله، حيث طبع الديوان الذي يضمّها عام 1976، وهو "مأساة القرن الضليل".

شغل الشاعر شفيق حبيب منصب الناطق باسم رابطة الكتاب الفلسطينيين في الأرض المحتلة ورئيساً للجنة النثر فيها. وقد كان الشاعر أيضًا عضوًا في تجمّع الكُتّاب والأدباء الفلسطينيين الدولي – بن، وشارك بتحرير مجلة مشاوير مع الشاعر فاروق مواسي، والشاعر الراحل جورج نجيب خليل. وحصل على جائزة التفرغ عام 1996 من قِبل وزارة العلوم والفنون.

مشوار حبيب مع الشعر[3]

بدأ الشاعر خطواته في شعر منذ مراحل دراسته الابتدائية، حيث كان يكتب القصائد، ثم أثناء دراسته الثانوية بالناصرة، وكان يقدم مواضيع الإنشاء شعرًا. وفي المراحل الأخيرة من دراسته الثانوية، بدأ ينثر قصائده الغزلية في جريدة اليوم، حيث لم تكن جريدة الاتحاد الشيوعية تنشر شعر المبتدئين واللاحزبيين.

كان أول ديوان قد أصدره الشاعر هو قناديل وغربان عام 1972، وقد أصدره على نفقته– كسائر مؤلفاته.

اتجه الشاعر إلى الشعر السياسي وهو ما زال يكتبه حتى اليوم متفاعلاً مع الحدث. كذلك فإنّ الشاعر، يعالج مناسبات أخرى، كرثاء شعراء زملاء من الوسط الأدبي، مثل محمود درويش وإميل حبيبي وراشد حسين وشكيب جهشان وحبيب شويري وفوزي عبدالله وسليم مخولي وميشيل حداد وغيرهم... كذلك فإنّ الشاعر يكتب أحيانًا متناولاً القضايا العائلية، كمناسبات الأفراح وتحية الأبناء والبنات.

أولى الشاعر شفيق اهتمامه لكثير من الشّخصيّات، بينها شخصيّات درزيّة لكونهم جزء لا يتجزأ من الشعب العربي مثل، قائد الثورة السورية العربية الكبرى سلطان باشا الأطرش، وكتب كذلك للقاضي الدّرزي المتقاعد فارس فلاح، ورثى شهيدة الجولان المرحومة غالية فرحات.

إنّ المجموعة الشعرية التي أصدرها الشاعر ما بين الأعوام 1972 و2011، تعكس الواقع الفلسطيني بكل همومه ومعاناته. فقد عاش الشاعر في فترة حرجة، إذ فتح عينيه على مآسي النكبة والهجرة، ممّا جعل ذلك ينمو في نفسه ويظهره من خلال شعره. فأصبح يغني للوطن، ممّا جعل "أغنية لبلادي" تُظهر الهمومَ، وبيانَ حالات التمنّي والشوق التي تلف الشاعر. فمناجاة الوطن والتبحّر في همومه والغوص في أعماقه، هي من سِمات هذه

[3] - سيرى النّور قريبًا كتاب بعنوان "شفيق حبيب- شاعرًا في مرايا النّقد".

القصيدة إلى جانب القصائد الأخرى. فحُبّ الوطن والأرض والشعب والمقدسات، من لوازم الشاعر شفيق، الإنسان الشاعر، فهو جريء في طرحه لأفكاره وإيصال معتقداته وهمومه للناس، وكأنه يشخّص علاقاته مع الآخرين. وكأن الشاعر في حالة توحّد قائمة بين حُبّ الوطن والأشياء الأخرى، جعلت من الشاعر إنسانًا يتملك حواس متعددة كلها تصب في خدمة المبدأ الذي يؤمن به. فالشاعر شفيق حبيب يكتب الشعر الملتصق بالوطن، ويمزج الموضوعات البطولية بمشاعره الصادقة وما يحيط بقضيته الرئيسية فلسطين من مخاطر فأصبح الوطن جزءًا من شعره.

وتضيف دالية بشارة قائلة في شاعرنا: "الشاعر شفيق حبيب عبارة عن شريط من الصور: منها المحزن والمبكي، ومنها المفرح. هذا التنقل بين الموضوعات والهموم والأساليب، جعلت من الشاعر يفيق وينام مع هموم أمته وقومه. وقد توزعت مشاعره بين المحليّ والعالميّ والقوميّ والإنسانيّ[4] فهو الذي قال:

نخيلُ العراقِ يموتُ شموخًا
وتبقى الذّئابْ
وتبقى جيوشُ الذبابْ
لكَ القلبُ يا شعبَنا في عِراقِ التحدّي...ولكنْ
جناحايَ في ألفِ قيدٍ ونابْ

فالشاعر يُبرز لنا الحالة التي وصل إليها العرب من تشرذم وغربة، ويتضح من لغته وأفكاره وأساليبه تنقله بين الرومانسية والكلاسيكية والواقعية، ممّا جعل لوحاته الشعرية هجوميّة وساخطة. وقد كانت جُمَله، واضحة سهلة وكأنه يتحدث إلى جمهور بسيط في جلسة خاصة.

[4] - بشارة، دالية. "**دراسات في بعض أعمال شفيق حبيب**". صحيفة "**كل العرب**" النصراويه، 27.1.1995.

أما بناء القصيدة في شعر شفيق حبيب، فكان يتراوح بين النظام الهندسي القديم، وهو كثير، وبين قصيدة التفعيلة، إلا أنه لم يغفل الموسيقى في بنائه الهندسي لقصيدته. ويخلو شعره من الرموز المعقدة، وإنّما تبدو صورهُ واضحة، وأفكاره منبسطة، سريعة الفَهم، على الرغم من وجود السوداوية أو الانهزامية أو الإقرار بالواقع الفاسد عبر لغة مُعبأة بالهموم، إذ تعددت أساليب الخطاب عنده. فمرّة يستخدم النداء، وأخرى التحدّث بأسلوب الأمر أو النهي، ممّا يجعل التقريرية والتكرار اللفظي والمعنوي من لوازم أشعاره. فالشاعر شفيق من الشعراء الذين يختارون كلماتهم للوصول إلى هدفهم، فصياغة الأفعال وبنائية الجُمَل تعبّر عن دراية باللغة وهمومها، إلى جانب التعامل مع القوافي والإيقاع وجرس الألفاظ. كل ذلك يؤدي إلى رفع مستوى الأداء والتمسّك بالمطلوب والبحث عنه.

اختار الشاعر شفيق أن يكون مُلتزمًا وبلغة ثورية، ويبرز هذا الالتزام في موقف الشاعر من قضية الأرض والوطن والإنسان. هذه القضية التي تشكّل المحور الأساسي في دواوينه الكثيرة ذات السياقات المتنوعة التي تنتهي إلى مَصب واحد، هو الرفض لكل مظاهر القهر والعدوان التي أحاطت بالشعب الفلسطيني منذ النكبة وحتى يومنا هذا.

ديوان "أنا الجاني" نموذجًا

"أنا الجاني"، هو عنوان الديوان قبل الأخير للشاعر شفيق حبيب، الذي يتناول مواضيع متنوعة بين الوطني والمناسباتي، والشعر الوجداني الإنساني. يصور الشاعر من خلاله الوضع الفلسطيني والمعاناة الوطنية والقوميّة، وحُلم الشعب الفلسطيني بالاستقلال، ثم خيبة الأمل التي يعيشها الشاعر جراء ما آلت إليه الأوضاع العربية من تردٍّ وتخاذلٍ وهزيمة، فيصيح في وجه القادة العرب المتخاذلين المتواطئين. وفي هذا يقول:

يا قادةَ القطعان!! ما أنتم سوى قِطَعٍ على قِطَعٍ من الأخشابِ
أضحى كيان عروبتي وعقيدتي تمثالَ شمعٍ في اللهيبِ مُذابِ
يتكلمُ الحجرُ الجريحُ منافِحًا وملأتُمو أفواهَكم بتُرابِ

الكاتب شاكر فريد حسن يقول في الشاعر شفيق: "ويحكي عن أطفال فلسطين زنابق القبور وينابيع المستقبل ويتحدث عن الكرامات التي تُداس في هذا الزمان، وتضرب الهامات وتحاصر الحريات. ويسأل أين هم الشعراء في هذا الزمان، ويخاطب المسيح ليخلّص شعبه وأمته من القهر والظلم والمعاناة"[5]:

أيّها المارِدُ القويُّ أجِرْنا نحن في خندقٍ ظَلومِ المُقامِ

أنتِ نورُ الدّنى إذا جنَّ ليلٌ أنتَ حقٌّ يُبيدُ نارَ الخصامِ

أنتَ نورُ الحياةِ في كل عصرٍ أنتَ بدءٌ وأنتَ مِسْكُ الخِتامِ

وتمتاز قصائد الديوان بالتنوع في بنائية النص، وبالموضوع، والبساطة، والسلاسة، ووهج المشاعر والانفعالات، والدفء الإنساني. وفيها حدّة وانفعال وتوتر، ورونق وجمالية، تمسّ أعمق المشاعر. ثم يتناول الشاعر جانبًا من شخصيات القدس، وهو فيصل الحسيني، الذي كان عاشقًا للأرض والتاريخ والقدس. ويحزن شفيق حبيب الشاعر لرحيل توفيق العفيفي -أبو أحمد- ويتألم لموت الشاعر شكيب جهشان.

فالديوان بأقسامه الأربعة يتّسم بالوطنية والشفافية، والإخلاص والوفاء، وهي عناصر مكوّنة للمجموعة، وبالتالي لذات الشاعر.

وفي هذا المقام يقول الدكتور الأغا يحيى زكريا: "وقد برزت بشكل واضح في الديوان لغة التشخيص والإيحاء والرمز، فلم يكتفِ الشاعر بالوقوف على القضية المركزية، بل شقّ الغبار عن وجه دجلة والفُرات، والنّجف الأشرف، وبغداد والبصرة، واعداً بأنّ شمس الحريّة ستشرق مِن خلف غمامة سوداء قادمة من الغرب، مذكراً بتراث بغداد وحضارة الرافدين التي لا تعرف الاستسلام[6].

[5] - حسن، شاكر فريد. **"وقفة مع ديوان أنا الجاني"**. صحيفة **"حديث الناس"** النصراوية، 18.11.2005.

[6] - الأغا، يحيى زكريا. **"شفيق حبيب في أنا الجاني"**. صحيفة **"الاتحاد"** الحيفاوية، 19.7.2002.

وإذا كانت المتناقضات والمتضادات جزءًا من الموسيقى الداخلية لغة من البديع، فقد وصفها الشاعر شفيق بأسلوب مُبدع، عكسَ قدرة الشاعر على تملّكه لغة شعرية جيدة ومميّزة.

ديوان "صارخ في البريّة"

لقد أراد الشاعر من خلال عنوانه لهذه المجموعة "صارخ في البريّة"، أن يؤكد تواصله على نفس النهج المناوئ للظُلم والاضطهاد، وأن يصرخ في وجه الغافلين الذين يميلون حيث تميل الريح. ويصرخ الشاعر شفيق بأعلى صوته لعلّه يحرك مشاعر الكرامة والنخوة.

صدر هذا الديوان عام 2001، وتضم المجموعة خمسًا وعشرين قصيدة، كتبت على فترات متقاربة نسبيًاً، ونشر بعضها في صحف ومجلات محلية وعربية مختلفة. ويُقسم الديوان إلى ثلاثة أقسام:

- **انكسارات حادّة.**
- **وردتان فلسطينيتان.**
- **أغاني الرّفراف.**

وكعادة الشاعر شفيق، لا ينقطع عن قضية الوطن المكبّل بالحِصار، ولا ينسى مأساة شعبه الذي بات على مرمى حجر من الحريّة والعودة والاستقلال. ثم يعبّر الشاعر عن الألم والأمل، والطموح الكبير نحو التّجلي في الوطن الفسيح. لذلك يُعتَبَر الشاعر شفيق حبيب شاعر الكلمة الصادقة والملتزمة، كما هو شاعر يدرك الأمور جيداً، ويصوغها برؤيته هو، ويعبّر عنها بقالبه الشعريّ، الخاصّ بصدِق الحاسّة والإحساس، وبالنظرية الثورية الواقعية، كما في قوله:

وأزرع الثورةَ ضوءًا
في القلوبِ المعتمة
عُدْ إلينا يا أبا ذرّ
وقدِّمْنا لسيفِ المحكمَه

وفي ذلك يقول علوش محمد: "يكشف الشاعر عمّا في نفوسنا من وهم وأمراض، على كافة الاتجاهات، وخصوصاً النّعرة الطائفية التي واجهت الشعب إثر المحاولات العفويّة، لدقّ إسفين الخلاف والاقتتال الداخلي بين أبناء الشعب الواحد - مسلميه ومسيحييه- فجاء كلام الشاعر بلسماً للجرح في روحانية صادقة[7]:

والدينُ عندي صفاءُ النفس يُسْكِرُني كم شدّني قرعُ أجراسٍ وآذانُ

ديني مع الله... لا أرضى له وسطاً ما أنزلت للدِّما والعنفِ أديانُ

فالله لا يرتضي للعرشِ حامِيَةً وحَوْلهُ من جنود النور فرسانُ

المُلخَّص:

يمكن القول إنّ الشاعر شفيق حبيب هو شاعر شمولي في رؤاه وروايته، ومثقف جامع، تناول في كتاباته معظم المواضيع التي يتطرق إليها معظم شعراء الفلسطينيين. وذلك لأنه شاعر خرج من صفوف الشعب، حيث التزم بقضايا شعبه الجماهيرية والسياسية والاجتماعية. ففي جميع دواوينه تناول جميع الأحداث في قصائده ليتجلى لنا تاريخ بطولات الشعب الفلسطيني ومعاناته.

لذلك نجد أنّ قصائده الوطنية الحماسية تُعبّر عن مواقفه السياسية الملتزمة. فهو يكتب المقالة السياسية والنقدية معًا، الأمر الذي جعل نتاجه الأدبي متنوعًا.

وبذلك، يُعتَبَر الشاعر شفيق حبيب، شاعرَ الكلمة الصادقة والملتزمة، كما هو شاعر يدرك الأمور جيدًا، ويصوغها برؤيته هو، ويعبّر عنها بقالبه الشعريّ، الخاصّ بصدِق الحاسّة والإحساس، وبالنظرية الثورية الواقعية التي يذود بها عن حقوق الشعب الفلسطيني في هذه البلاد.

[7]- علوش، محمد. **"الشّاعر الذي لا يعرف الهزيمة "**. صحيفة **"الاتحاد"** الحيفاوية، 19.7.2002.

ببليوغرافيا

1- الأغا، يحيى زكريا. "شفيق حبيب في أنا الجاني". صحيفة **الاتحاد** الحيفاوية، 19.7.2002

2- الأغا، يحيى زكريا. "شفيق حبيب- منارة للشعر". صحيفة **الشرق** القطرية، 26.2.2003.

3- الأغا، يحيى زكريا. "شفيق حبيب- منارة للشعر". صحيفة **الاتحاد** الحيفاوية، 6.4.2001.

4- الأغا، يحيى زكريا. "طائر الفينيق". في كتاب: **إضاءات في الشعر الفلسطيني**، 1998.

5- الأغا، يحيى زكريا. **"قراءة فنّية".** صحيفة **الاتحاد** الحيفاوية، 6.4.2001.

6- بشارة، دالية. "دراسات في بعض أعمال شفيق حبيب". صحيفة **كل العرب** النصراويه، 27.1.1995.

7- توما، منير. "ألَمٌ يختزله قلم". صحيفة **الاتحاد** الحيفاوية، 1.6.2005.

8- حسن، شاكر فريد. "وقفة مع ديوان أنا الجاني". صحيفة **حديث الناس** النصراوية، 18.11.2005.

9- الديك، نادي ساري. "الشاعر شفيق حبيب مسيرة عطاء وشاهد على العصر". عن كتاب **أخوة التراب وهموم المكان**، 2011.

10- سقيرق، طلعت. "عشرون قمراً، شفيق حبيب والنفخ في البوق". صحيفة **"الاتحاد"** الحيفاوية وموقع **مؤسسة فلسطين للثقافة**، 25.9.2008.

11- عامر، نور. "الفن والالتزام في شعر شفيق حبيب". صحيفة **كل العرب** النصراوية، 2.5.2003.

12- عامر، نور. "قصيدة للتشريح". صحيفة **كل العرب** النصراوية، 22.2.2011.

13- عامر، نور. "تعاويذ من خزف". في كتاب: **رحلة في أجواء الحروف- مداخلات نقدية**. د.م: د.ن، 2000.

14- علوش، محمد. "الشاعر الذي لا يعرف الهزيمة". صحيفة **الاتحاد** الحيفاوية، 19.7.2002.

15- مرعي، محمود. " تعاويذ من خزف". صحيفة **بانوراما**، 19.7.1996.

16- مواسي، فاروق. "لقاء وأمل". في كتاب: **عرض ونقد في الشعر المحليّ**. القدس: د.ن، 1976.

17- مواسي، فاروق. "تراكمات". في كتاب: **قصيدة وشاعر**. نابلس: دار الفاروق، 1996.